



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت / كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية / دكتوراه الآداب

المادة

فنون نثرية قديمة

المنامات في العصر العباسي

مدرس المادة : أ.د أسماء صابر جاسم

المقدمة:

عرف الأدب الشعبي العربي فن السيرة الشعبية بوصفه ذلك الفن الذي تمتاز فيه عدة فنون مختلفة مثل الرواية، والغناء، ولعزف، وهو الفن الذي تناقله الناس عبر العصور حتى وصل إلينا. وتعد السيرة الشعبية نوعاً من القصص الشعبي الذي يعيش وينمو بدافع من اللاشعور الجمعي، ومصدر هذا الإحساس والتعبير شعور الفرد بالعقبات المحزنة والمكونة في لاشعوره منذ طفولته حتى مرحلة التفرّد والاكتمال^١. وترتبط السيرة الشعبية بتاريخ شخص من أشخاص القبيلة أو أفرادها ووقائعهم وأحداثهم، وتغلب عليها المبالغات والخوارق التي تضيفها المخيلة الشعبية عليها؛ مما يدرجها في عوالم الخرافات والأساطير.

ويرى بعض الدارسين أن السير الشعبية - بقصصها وحكاياتها في معظمها. ردود على مشكلات نفسية واجتماعية متقاربة المضمون والهدف، وهي تؤدي وظائف اجتماعية وتربوية، كما تتوجه لأكثر من قطاع في الحياة العامة، وتغرس في اللاوعي الجماعي، وتؤدي أدواراً وطنية وسياسية ونضالية.

وما يزيد تلك السير قيمة أنها تعد من أكثر الأشكال التعبيرية في الأدب الشعبي انفتاحاً على أشكال التعبير المختلفة، فعلى سبيل المثال نجد في سيرة الأميرة ذات الهمة والهالية، وسيف بن ذي يزن، وعنترة بن شداد وغيرها عدة فنون تعبيرية؛ مثل: الشعر، والأسطورة، والحكاية الخرافية^٢.

ومن المعروف والبدهي أن السيرة - بوصفها أحد مجالات الأدب الشعبي لم تمر بمرحلة واحدة، بل مرت بعدة مراحل، بداية من الشفاهية وتناقلها على السن القصاص، وبعد ذلك تطورت ودونت لتخرج لنا في أبهى صورة لها؛ إذ تعد السيرة الشعبية مرحلة النضج والاستواء من مراحل تطور الأدب الشعبي، بداية من الحدوتة والحكاية الخرافية وألف ليلة وليلة وكليلا ودمنة؛ ذلك أن السيرة ذات بطل واحد، وذلك بالإضافة إلى تعدد الأحداث الكثيرة والمتصلة التي تعد بديلاً من الملاحم الغربية؛ ومن ثم فإن دراستنا سنتهم وتنصب على السيرة في طورها الأخير الذي تطور عن الشفوية ليصبح مدوناً.

ومن اللافت للنظر في تكوين السير الشعبية كثرة الأساطير، والأحلام، والعرافة، والتنبيؤ بوصفها وحدات محورية وأساسية في التكوين البنائي للسير؛ ولكنها تمر بمصفاة إسلامية توظفها في إبراز المعاني الإسلامية؛ مما يؤدي إلى الوحدة بين تلك الأراضي المواجهة للخطر الخارجي.

الأحلام وعلاقتها بحكايات السير الشعبية:

تعد نصوص الأحلام بنية قوية ومهمة في تحريك السرد داخل السير الشعبية ولا يمكن التعامل معها بوصفها مجرد وحدة سردية اعتباطية؛ إذ تأتي بمنزلة مساعد للبطل. فأغلب المنامات والأحلام التي وردت في السير موضوع الدراسة جاءت لدعم البطل في مهمته وسيرته؛ إذ ورد في سيرة سيف بن ذي يزن واحد وعشرون حلماً، وفي سيرة الأميرة ذات الهمة سبعة وتسعون حلماً، وفي تغريبة بني هلال تسعة أحلام وكانت. تلك الأحلام عتبة من عتبات السيرة المعرفة

^١ - انظر: نبيلة إبراهيم، سيرة الأميرة ذات الهمة دراسة مقارنة (مصر: المكتبة الأكاديمية، طه ١٩٩٤م) ١٢٨٠

^٢ - انظر منصور بويش السرد الشعبي في التراث العربي التشكل والأنواع، ص ٩-١٠.

البطل إذ إن كل أبطال السير بشرت بهم الرؤى والأحلام، مثل: بشرى ميلاد الأميرة ذات الهمة وميلاد عبد الوهاب" (١)

وظهرت تلك الطبيعة الخاصة بوجود أحلام على إثرها يسلم الراقي ويساعد البطل في سيرة الأميرة ذات الهمة، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر المنام الذي رآه الحكيم إقليدس، وعلى إثره أسلم؛ فزاد عدد المسلمين والجيش الإسلامي ضد الروم. ذلك بالإضافة إلى وجود شخصيات مساعدة في المنام؛ لدعم الحلم وتأييده، مثل: ظهور النبي الله والخضر وعيسى عليهما السلام، وهدفهم جميعاً تأييد البطل. (٢)

وأحياناً يرد الحلم كي يعزز قوة البطل ويعينه في لحظات الضعف واليأس، أو ليستنهضه ويبشره بالنصر إن استعان بالله، وأنه مؤيد من الله عز وجل ورسوله، وهو يؤكد ما ذهبت إليه بعض الدراسات من أن بطل السيرة الشعبية يأتي مؤيداً من الله ويأتي في حالة سلام مع القدر، فهو مؤيد من الإله الواحد، والجنة هي مصيره السعيد.

وفي أحيان يأتي الحلم بوصفه رؤياً مبشرة لدخول الرائي الجنة؛ كي يقوى عزمه على مساعدة البطل من خلال توضيح الجزاء السعيد له، وفي أحيان يأتي الشهيد ليخبر عن حاله بعد الموت، أو التنبؤ باستشهاد الرائي.

وأحياناً يرى الرائي بشرى بقدم البطل له لنجدته، أو يرى حلماً أشبه بالمعراج تكريماً له، مثلما رأت أم جميل في سيرة الأميرة ذات الهمة بعد استشهاد ابنها أثناء إحدى المعارك.

وبالرغم من هذا الطابع الجيد والسعيد للحلم؛ فإنه قد يأتي في أحيان كثيرة منذراً بوقوع كارثة كي يتجنبها البطل " وإن غفلها وقع في كارثة لا تحمد عقابها. وفي أحيان أخرى ينذر بولد فاسد يعيث في الأرض الفساد، مثل الحلم الذي رآته زوج مصعب بن الوليد في بداية سيرة الأميرة ذات الهمة حول مولد الأمير ظالم الذي أشاع الفتن بين الناس. "

كما ورد الحلم تحذيراً وعقاباً للرأي، مثلما رأى البطريق "فقطونس" الذي عزم قتل الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إذ تحول على إثره إلى مسخ نهق ثلاثاً مثل الحمير ومات، وكان ذلك عقاباً له لمحاربتة الرسول فلولا وجود الحلم لما مات ولا تحول؛ إذ إن الحلم شكل عنصرًا سردياً لا يمكن الاستهانة به. (٣)

وتم صنف وطبيعة مميزة لنصوص أحلام وردت في السير - موضوع الدراسة عكس المعتاد؛ إذ إن المعتاد قيام الحلم بوظيفة البشرى للرأي بقدم البطل، أو حثه على الدخول في الإسلام ومساعدة البطل، لكنه في أحيان أخرى يأتي للعدو وينبهه بقدم البطل؛ مما يؤدي إلى إثارة الأحداث، وخوف العدو من البطل، وعد العدة استعداداً للملاقاة البطل؛ إذ يستيقظ الرائي وهو في حالة هلع وذعر، وذلك يتم عن قوة البطل ويؤكد لها، فهو شخص لا يستهان به.

فيما تتسبب بعض الأحلام في تغيير وجهة البطل وحركة السرد؛ فبدلاً من أن يتجه البطل نحو طريق محدد، يصادفه شيء أو شخص يثنيه عن طريقه ويؤخره؛ ليذهب إلى طريق جديد ومهمة جديدة، مثل الحلم الذي روي للملك سيف بن ذي يزن، وعلى إثره توجه لإنقاذ أهل مدينة

١ - راجع: سيرة الأميرة ذات الهمة ولدها عبد الوهاب. (بيروت: المكتبة الشعبية، مج ١، ج ١، د.ط (١٩٨١م)، ٧؛ ومج ١، ج ٧، ص ١٦٢٨ وورد في سيرة الأميرة ذات الهمة ولدها عبد الوهاب (بيروت: المكتبة الشعبية، مج ٥، ج ٤٢، د.ط (١٩٨١م)، ١٢٨

٢ - سيرة الملك سيف بن ذي يزن مج ٢، ج ٩، ص ٩٤٠

٣ - الأميرة ذات الهمة، مج ٦٣، ص ١٢٢٠ ومج ٤، ج ٣٥، ص ٣٢٦؛ سيرة الملك سيف

المريخ " ومثله ذلك الحلم الذي رواه أبو محمد البطل للأمير عبد الوهاب، وعلى إثره تحركت مجموعة من الجنود ومعهم الأمير لنجدة المسلمين وقتال الروم، وحطم الملكة صلبان الذي سافرت على إثره إلى دير النذور، وقبضت على أبي محمد البطل وأسرتة إلى بلاد الروم. فبدلاً من أن يكون الحلم لصالح البطل جاء لصالح الأعداء؛ كي تزداد الحبكة والصراع؛ فينتصر البطل في النهاية بعد عناء شريف^(١).

ولا يمكن إغفال استخدام الحلم سردياً - للخديعة؛ إذ كان "الحلم الخدعة" سمة ميزت نصوص الأحلام في السير الشعبية؛ ذلك أن تلك السير تقوم على صراعات وحيل بين طرفين، وجاء الحلم بوصفه وسيلة مساعدة لإقامة تلك الحيل التي تساعد في المعارك. ولأن الحلم الخدعة نوع من الكذب، فإنه ورد بكثرة على لسان الأعداء أكثر من العرب، وكأنه إيذان بأن البطل العربي شريف لا يكذب ولا يخدع، في حين أن صفة الخداع والمكر هي صفة العدو الملعون.

يُعدّ الأدب العباسي من أكثر العصور الأدبية العربية غنيًا وتنوعًا في الأشكال والأساليب والمضامين. فقد شهد هذا العصر ازدهارًا علميًا وثقافيًا واسعًا، انعكس على الإنتاج الأدبي الذي تداخل فيه الخيال بالواقع، والعقل بالوجدان، والدين بالفلسفة.

ومن بين الأشكال الأدبية التي ظهرت وازدهرت في هذا العصر فنّ المنامات أو الأحلام الأدبية، الذي اتخذ الأدباء وسيلة للتعبير الرمزي عن قضايا فكرية واجتماعية وسياسية، أو أداة للنقد والإصلاح بأسلوب غير مباشر.

^١ - وسيرة الملك سيف بن ذي يزن مج ٢، ج ١، ص ٦١٥. راجع: سيف بن ذي يزن، مج ٢، ج ٩، ص ٩٠٢-٩٠٣.